الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢١ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٥٦ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
١٢٩٠	الغرام الأول	أنصوصة مصرية	بقلم أحمد حسن الزيات
١٢٩٥	الزوجة الحسناء	للكاتب النمسوى هيرمان بار	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب
١٢٩٩	فى ليلة الميلاد	للقصصى الفرنسى جى دى موباسان	بقلم السيد محمد العزاوى
١٣٠٩	يقظة الضمير	لبوريس فيليبوف	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة
١٣١٥	خيال الحب	للكاتب الفرنسى أندرية بيرابو	بقلم الأديب محمود السيد شعبان
١٣٢٢	قصة كمان	للقصصى الروسى أنطون تشيكوف	بقلم الأديب السيد جورج سلستى
١٣٢٩	الأغلال	للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور	بقلم الأديب شكرى محمد عياد
١٣٣٢	بقية حية	للكاتب الروسى تورجنيف	بقلم الأستاذ خليل هنداوى
١٣٣٦	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه	بقلم الأستاذ فليكس فارس
١٣٤٥	الأوذيسة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة

من ذكريات الريف

الغرام الأول

بقلم احمد حسن الزيات

ذهبت منذ قريب إلى القرية فى شأن من شئون الأسرة . وللقرية في رمضان سحر يغلب على القوى الحاسة فتغرق فى فيض من الشعور الرضى الرخى المبهم ، فلا تدرى أهو حلاوة الذكرى الخاطرة ، أم نشوة الطبيعة الشاعرة ، أم لذة الأنس الخالص ، أم جمال الايمان المشترك . وأحب شئ إلى نفسي هناك أن أخرج أنا وصديقي العمدة إلى ملاعب الطفولة ومسارح الصِّبى ، فأستنشى عبير الذكريات الجميلة ، وأستوحى آثار الذاهبين الأعزة . مشينا على العادة ننقل الخطو الرفيق على أسطار مشرقة من أديم الثرى الحبيب ؛ فهنا نتذكر مجلساً من مجالس الآباء ، وهناك نتمثل ملعباً من ملاعب الإخوة ، وثمت نتخطر موقفاً من مواقف الأحبة ، حتى انتهينا إلى مكان ظليل جميل فى ظاهر القرية ، فجلسنا فيه نقول كان وكان ، ونتمتع بملء العين والصدر والنفس من صفاء الجو ورخاء النسيم وإشعاع البيئة . وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقي نظره إلى مورد الماشية من الترعة ثم رده علىَّ وفى عينه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام . فنظرت حيث نظر فإذا امرأة فى أخريات الشباب تورد بقرتها الماء ، وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء ، فلم أثبت معرفتها . وعهدي بالقرية بعيد فلم أعد أميز المرأة بلبستها ومشيتها وبهيمتها كما كنت أفعل .

ارتد بصرى إلىّ خائباً لا يملك تفسير ما فى نظرة الصديق من عجب ، وما فى ابتسامته من خبث . فسألته : ماذا ؟

قال : أما عرفتها ؟

فقلت : من هى ؟

قال : فلانة !

فقلت : فلانة ؟!!

قال : نعم فلانة ! ولا أدرى كيف أحببت هذه المرأة وأنت رجل منذ نشأت شاعر القلب ، وهى على ما أرى من ضمور الجسم وجفاء الخلقة ..! ماذا فتنك منها وإنك لتراها .. ؟ ...

فقلت له : بالله ربك لا تزد ! لا أريد أن تصفها ولا أحب أن أراها . دع لى صورة الفتاة التى عرفتها وأحببتها . إنها لا تزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفولة ، ناضرة كالصِّبى ، ساحرة كالشبيبة . أما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب . قم بنا عن هذا المكان وسأريك من هذه الصورة الجميلة خطوطاً تبعثك على أن تتخيل أكثر مما تسمع ، وتتمتع أكثر مما تفهم

* * *

كان ذلك فى ربيعى السابع عشر والدنيا غير

الدنيا ؛ والناس غير الناس ، فالدور يفيض منها الخير ، والمجالس يشيع فيها الوقار ، والأخلاق تغلب عليها السذاجة ، والأمور بين أهل القرية تجرى على نظام سماوى من التسامح والتعاون والألفة والعفة والاحترام والاحتشام والبر . وكان سلطان الأب على الأسرة أشبه بسلطانه عليها فى الجاهلية الأولى ، فهو مجمع رأيها فى القول ، ومرجع أمرها فى العمل ؛ لا يُثنى له يد فى شأن ، ولا يُرد عليه قول فى حكم . لذلك نشأنا على الهيبة فلا نقترب من مجلس ، وعلى الحياء فلا نشارك فى حديث ، وعلى الطاعة فلا نعارض فى أمر ، وعلى الحشمة فلا نتبذل فى عاطفة . فتستطيع أنت من وصف تلك الحال أن تدرك طبيعة الحب الذى يُولد بين هذه البيئة وبين هذه النشأة

كنت أقضى عطلة الدراسة كل صيف فى القرية ؛ فلا أكاد أنطلق من قيود الحياة فى القاهرة حتى أعود إلى أحضان الطبيعة الرءوم ، أتوخى أفياء الشجر كالطير ، وأحوم بين الحقول كالفراش ، وأروى مشاعرى الظامئة من الجمال الحلال فى السماء والماء والهواء وصور الناس ووجوه الأرض . فاذا أينع القطن وحان جنيه حلا لى أن أخرج وراء الجانيات الجميلات بغية أن أراقب عملهن وأسجل أسماءهن ؛ ولكن الباعث الصحيح على مكابدة القيظ واحتمال العناء كان شغفى بالجانب الشعرى من هذه المشغلة . فقد كان خروج الفتيات من أزقة القرية أسراباً إلى الطريق الضاحك المطلول عليهن صباحة الصبح وإشراق العافية ، ووقوفهن صفاً على رءوس الخطوط فى أعلى الحقل يحيين بأصواتهن الرخيمة الشادية شجيرات القطن وقد انعقدت على أوراقها أكاليل الحباب وسال على أطرافها رُضاب الندى ، ومشيهن الوئيد فى أخاديد الأرض منحنيات على الفروع الموقرة بالثمر الغالى يقطفنه فى لباقة وبضعنه فى خفة وهن يتفكهن بالنكات ويتروحن بالأغانى ويتسارررن بالمنى ، ثم عودتهن فى طفول الشمس يمرحن كالغزلان ويصدحن كالعصافير فيخلعن على كآبة النهار المحتضر وضاءة الصباح الوليد ؛ كل أولئك كان يرهف شعورى بالجمال فأسمو على حداثتى وجهالتى إلى أفق الالهام والشعر .

وكان من بين هؤلاء الفتيات النواهد أربع لهن عليهن السلطان الغالب والارادة الطاعة ، لامتيازهن بالحسن الرائع أو الصوت العذب أو الدلال العابث . ولهذه المزايا نفسها نشأت بينى وبينهن ألفة ، فكن يتخلفن عن السرب ينضحن وجوههن ويصلحن هنداماتهن حتى تنهض الجمال رائحة بأحمال القطن ، فنعود جميعاً صامتين إلا كلمة حيية أو ضحكة ندية تقع فى الأذن أو فى القلب حيناً على حين

وكانت فلانة هذه إحدى هؤلاء الصواحب الأربع ، وكانت يومئذ فى عمر البدر تمتاز منهن بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية . وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشعان الفتنة من خلال أهدابهما الوُطف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الافترار ، وصوتاً لطيف الغنة حلو النبرات فضىّ الرنين ، ونفساً رزينة الطبع رقيقة الشعور هادئة الشعاع ؛ فلا تملك وأنت مأخوذ بسحر هذه الصفات أن تفكر فيما فقدته من براعة التكوين وصفاء البشرة وغضارة البدن . وكانت هى من دونهن شديدة الحفر طويلة السكوت خافضة الصوت ؛ تغمغم إذا تكلمت ، وتطرق إذا تبسمت ، وتنظر إذا نظرت خُلسة أو عن عُرض . فأغرانى

هذا النفور الغزالى بها ، فكنت أسلط عليها رفيقاتها فيداعبنها باليد ، أو يعابثنها باللسان ، فتنظر أو تضحك أو تصيح ؛ فأحس فى دعج عينيها ، وبريق ثناياها ، وحلاوة جرسها ، شيئاً خفياً قوياً لا أجهله لأنه ملء الشعور ، ولا أعلمه لأنه فوق المعرفة

كنت أقعد تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع فتأتى الفتيات فرادى وثُنَى فيضعن مايثقل حجورهن من القطن ، ثم يثرثرن طويلاً وينصرفن طافرات أوهازجات ، إلا فلانة هذه ، فقد كانت تأتى وحدها فتحل نطاقها على طرف المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة الطرف باسمة ، فأحاول استنطاقها فترتاع وتنقلب إلى خطها مضرّجة الوجه لاتنبس ولا تلتفت . وفى ذات مرة طلبت منها جرة الماء فجاءت بها على استحياء وهى تحاول أن تُغضن من وجهها وتكسر من طرفها فلا تستطيع . ووقفت أمامى عيناً لِعَين ، وروحاً لروح ؛ وجهدت أنا كذلك أن أقول لها كلمة فذهل الخاطر وتعطل اللسان ؛ وظل كلانا ينظر إلى الآخر ولا يراه ، ويتلمس الطريق إليه ولا يجده ؛ ولكن سبباً من أسباب القدر كان قد وصل القلب بالقلب ، فامتزجت النفس بالنفس ، وفهم الشعور عن الشعور ؛ وأدركنا معاً أن بيننا سراً ليس بيننا وبين الناس ، جعلها فى نظرى غير من أرى من الصبايا ، وجعلنى فى نظرها غير من تعرف من الصبية . ومنذ ذلك اليوم أصبحت تحوم حولى حوَمان الروح حول جسدها الهامد ؛ تعلم أنه لها ، ولكنها لاتملك أن تبعث الحياة فيه

* * *

ومضت أيام الجنى السعيدة ، وقرّت الكواعب الحسان فى البيوت ، وأقفرت الغيطان فلا تعج بالشباب ، وصمتت الطرقات فلا تهزج بالأغاريد . وأصبح لقاء الأوانس الأربع ، أو الآنسة المرادة من هذا الجمع إن أردت الصدق ، عسيراً على مثلى ممن لا تساعدهم تربيتهم المدنية على أن يغشوا دور الأهلين فى كل وقت ، ويلابسوا طبقات الفلاحين من غير سبب . ولكننى أصبحت على غير ما أمسيت ! ففراغ بالى قد امتلأ ، وأفق خيالى قد امتد ، وسر حالى قد استعلن ؛ وظلت اليوم كله لا أجد فى قلبى غير هواها الملح يعصف به عصف الريح بالشجرة المتهدلة ، ولا أبصر فى عينى إلا جفنيها الكحيلين يُسبلان فى سكون على ألحاظها الفاترة ، ولا أسمع فى أذنى غير أغنيتها مع صاحباتها فى آخر يوم من أيام الجنى ساعة أقبلت على الحقل فى ضحوة النهار كعادتى ، ومطلعها :

يابدرِ لما جيتْ كانتْ ضلامْ نوَّرتْ

تلمست العلل والحيل لأراها فى بيتها أو ألقاها فى غيطها ، فأخطأنى التوفيق لهذا الحياء الغالب على طبعي ؛ فكنت أمر ببابها ، أو أسير فى طريقها ، فأجدها أحياناً على عتبة الدار داخلة أو خارجة ، أو أنحها حيناً على حمارها القصير الأبيض راكبة على حمل من البرسيم ، فنتخالس النظر ، ونتسارق الابتسام ، ثم يذهب كل منا لوجهه

لم أكن أعرف على وجه اليقين شعورها بهذا الفراق بعد أيام الجمْع ، ولكننى علمت من بعدُ أنها كانت تبتغى الوسيلة إلى اللقاء الحر حتى اهتدت إلى هذه الحيلة :

كان فى بيتنا صيدلية صغيرة من العقاقير الضرورية الواقية ؛ وكان أهم ما فى هذه الصيدلية لتر دائم من قطرة الزنك نجعله لمن يشاء من أهل القرية . فكنت ترى « المنظرة » فيما بين المغرب والعشاء أشبه

بالعيادة الناجحة . وكان الذى يتولى هـذا العمل الخيرى أنا أو أحد إخوتي . فبينا أنا ذات ليلة جالس وحدى على مصطبة الدار إذا بى أراها مقبلة تتهادى فى الظلام ، وقد عصبت عينها اليمنى بمنديل أسود ! فنهضت إليها عجلان فى حال تنم على دهشة المفاجأة وربكة الموقف وقلت لها :

— أهلاً وسهلاً ! سلامةْ عِينِك يا نور !

— فقالت نور ويدها ترتجف فى يدى، وصوتها يتهدج فى أذني

— الله يسلمك ! عاوزه أحط أطْرَهْ

— فدخلت بها النظرة وأجلستها بجانبى على الكنبة ، ورفعت هى العصابة عن عينها فإذا جفناها محتقنان قليلا . فسألتها عن سبب هـذا الاحتقان فقالت إنها حكتهما عامدة بالتوتيا الخضراء فالتهبا . فقلت لها وقد فطنت إلى ما رمت اليه :

— ولماذا ؟

— كِدَهْ !

— كده ليه ؟

— أهو كده !

فضحكتْ وضحكتْ . ثم أملتْ رأسها الصغير على ركبتى ، ووضعت كفَّى على وجنتيها ، وأناملى على خديها ، وطفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى وشغلنى . فهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل النظر ؛ وهذا هو الثغر الذى يفترّ عن اللآلئ كما يفترعن الدرر ؛ وهذا كله هو المحيا الذى يشرق فى قلبى الناشئ إشراق الأمل ، ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة . وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه فملأت القطارة وهممت أن أفتح عينيها ، ولكنها نهضت مذعورة وهى تستضحك وتقول :

لا . لا . عينى سليمة ، ما فيش لزوم

حينئـذ لم يبق بينى وبين نور إلا شىء له دلائل وليس له لغة . هى تعلم أنى أحبها ، وأنا أعلم أنها تحبنى ، ولـكننا لا نجد لهذا العلم الضرورى اسماً يدل عليه ، ولا كلاماً يعبر عنـه . لأننا معشر القرويين — كما تعلم — نعرف الحب بمعناه وننكره بلفظه . فنحن نفرّق منه كما نفرق من ألفاظ الفضيحة والنقيصة والعهر ، ولا نفهم من كلمة الحب إلا انفتاح العين والقلب لواحد من الناس فى غيبة الأسرة . ذلك إلى أن الحياء الطبيعى يعقد اللسان عن شكاية بُرَحائه وحكاية همه ، فكيف بالتصريح به ؟

كانت هذه الساعة التى جلستْها إلىّ ظاهرة من أغرب ظواهر النفس : صبيان في حمى الشباب ومرح الفتوة يتحرق كلاهما شوقاً إلى صاحبه ، فتدنيهما الفرصة المرقوبة ، وتجمعهما الطبيعة المؤلِّفة ، على غفلة الأعين وهمود الآذان ، فلا تنبسط يد ، ولا ينزلق لسان ، ولا تجمح شهوة ، ولا يكون بينهما إلا حديث عامٌّ لا يلبث أن ينقطع لأنه زورٌ على القلب وكذبٌ على الخاطر ؛ ثم يفترقان وفى صدر كل منهما سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح !!

دأبت نور على هذا اللقاء بهذه العلة أسبوعا من الدهر كان شبعا ورياً لهذه العاطفة المكبوتة فنمت نمو الجبار فى صدر واهن ضيق . ثم خشيتْ فضول الرقباء من طول الاستشفاء فأمرت عينها أن تبرأ ! وانسدل بينى وبينها الستار فلم أعد أراها

* * *

تذرعت إلى صداقة أخيها بوحدة السن والهوى حتى تمكنت بيننا الألفة . وأنتجت هذا الصداقة نتيجتها المقصودة فكنت أقضى أماسىّ فى بيته، بين

أمه وزوجه وأخته . نجلس جميعاً على فرن القاعة الدافىء نقلب الورق ونشقق الحديث ، ولكن ما حولنا وما بيننا من الأشخاص والأشياء كان إطاراً وكانت هى الصورة . فالعين لا تقع إلا عليها ، والقلب لا يتجه إلا إليها ، حتى فطنت لحالنا الأم ، واضطربت بحديثنا الألسنة ، وعزا الجليسون هذه العاطفة إلى طيش الحداثة ، واستبعدوا أن ينتهى هذا العبث إلى شىء من الجد لاختلاف التربية وتباين الطبقة ؛ ولكن هوى نور غطى على قواى المدركة فتركنى أضطرب فى دائرة ضربها علىّ فلا أحاول الخروج من حصارها الكثيف ، ولا أقصد إلا الغاية الحتمية للحب العفيف . ذلك أن الحب انجذاب وامتلاك واستئثار ومتعة . وهو يسلك إلى هذه الأطوار ما أمكن من السالك ؛ فإذا تعددت أمامه المنافذ انسرب من هنا وانسكب من هناك ، حتى ينتشر ويتبدد ؛ وذلك هو الحب فى المدينة . أما إذا انحصر فى حدود من الخلق المتين والتنشئة القويمة هدر هدير الأسير المغلوب ، واضطرب اضطراب المختنق المكروب ، ثم لا يجد له متنفساً إلا الفرجة الوحيدة المشروعة ؛ وهذا هو الحب فى القرية . لذلك قطعت العزم على أن أفضى بذات صدرى إلى أمها قبل رحيلى إلى القاهرة . فلما كلمتها ورجوتها فى ضراعة وتوسل أن تذود الخطاب عن نور ريثما أعود ، فجمتها هذا الرجاء فشخص بصرها ، وانفغر فوها ، وظلت على هذه الحال برهة لا تطرف ولا تجيب . وأخيراً قالت فى لهجة الحائر المشدوه :

وهل يرضى أبوك ؟

فقلت لها : وماذا عليك ؟ إنى أعرف من يستطيع إقناعه . ولكن أم نور نفسها لم تقتنع ، وكرهت مع ذلك أن تكسع باليأس أمل هذا العاشق الصغير ، فقالت لى بلهجة الأم العطوف :

سافر يابنى مطمئناً فهى لك !

* * *

وذهبتُ إلى نور فى الحقل القريب أودعها وداع الراحل فى الغد ، فوجدتها بين البقرة وعجولها الصغار توزع بينهن العلف ، كما وجد فرتر شرلوت بين أطفالها الستة توزع عليهم الخبز ! فجلست على حزمة من البرسيم ، وجلست هى إزائى على أديم الأرض . ومرت برهة من الصمت الحزين قبل أن أقول لها إننى عاهدت أمها على أمر ستعلم نبأه منها إذا سألتها ، وإننى سأسافر فى الغد إلى القاهرة ، وسأعود فى الصيف إلى القرية ، فيجتمع الشمل ويرجع الأنس ويتحقق الرجاء . فتبين الأسى فى وجه نور ، وحاولت أن تتكلم فأعياها الكلام ؛ فأطرقت برأسها ، وتحاملت على نفسها ، ولكن وجهها احتقن احتقان المختنق فانفجرت بالبكاء حتى سُمع نشيجها من بعيد . فكانت هذه هى المرة الأولى التى قالت فيها نور بلسان الطبيعة القوى الصريح : إنى أحبك !

وسعى الدهر بينى وبينها ، فوسّع مسافة الخلف بين طريق وطريقها ؛ وقطعتنى القاهرة عن القرية فأصبحت لا أزورها إلا لماما ؛ واستحدثت فى نياط القلب أسباب جديدة ؛ وتزوجت نور من ذلك الشقى الذى تعرف ، فأخ على براءتها بالشر ، وأنحى على سعادتها بالفقر ، حتى أصارها إلى ما ترى !

وكم يا صديقى فى أجادب الدنيا وصحارى الحياة من أزاهير لوحتها السموم وصوحتها الهواجر ، ولو أنها غرست فى أطايب الأرض لكانت زينة العيش وبهجة النفس ومتعة النظر !

الزيات